يهود المغرب الأقصى والجزائر خلال القرنيين 15 و 17 م، دراسة مقارنة

خالد مجوط

جامعة بن طفيل القنيطرة، المغرب

mejjout.88@gmail.com

DOI: https://doi.org/10.56807/buj.v3i3.218

ملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة يهود المغرب الأقصى* والجزائر، في الفترة الممتدة ما بين القرنيين 15 و 17م، وهي دراسة مقارنة نسعى من خلالها إلى رصد وضعية اليهود بالبلدين بعد سقوط غرناطة(1492)، حيث توزعوا في غالب الأحيان على المناطق الساحلية، كما أفرزت هذه الهجرة صراعا بين (الميغوراشيم) (اللقب الذي أطلق على اليهود الذين طردوا من إسبانيا والبرتغال سنتي 1492 م–1497م) و(الطشابيم) (أوالبلديين، وهم السكان الذين استوطنوا المغرب الأقصى و الأوسط بعدما تعرضوا للاضطهاد الروماني وقمع القوط لهم)، لتحتوي الأولى الثانية في كلا البلدين.

*للتوسع أكثر حول مفهوم المغرب الأقصى، انظر كتاب" مجتمع المغرب الأقصى من منتصف القرن الرابع الهجري إلى منتصف القرن العاشر ميلادي" مولاي هاشم العلوي، الجزء الأول، 1995، ص55.

واكب الهجرة اليهودية إلى المغرب والجزائر بروز ما يعرف بالغزو الأيبيري على سواحل المغرب الكبير، وكان لليهود مواقف متباينة من الوجود البرتغالي والإسباني، حيث آثر (الميغوراشيم) التعامل مع البرتغاليين نظير توفير الأمن لهم، مع تقديم خبراتهم في مختلف الميادين للبرتغاليين، في حين كان موقف (الطشابيم) هو الرفض المطلق لهذا الوجود، في حين واصل الإسبان اضطهادهم لليهود المهجرين بسواحل الجزائر، وهو ما دفعهم لطلب حماية العثمانيين الذين لم يترددوا في تلبية الدعوة قصد بسط نفوذهم عليها.

أمام حالة عدم الاستقرار السياسي، وفي ظل توالي سنوات الجفاف، وغياب الأمن؛ التأم اليهود في إطار ما يعرف بالحركة السبتائية، وهي حركة صوفية ظهرت بأزمير التركية، لتشكل الغطاء الروحي الذي يخفف من وطأة الاضطهاد السياسي والاجتماعي وقسوة الطبيعة.

الكلمات المفتاحية: المغرب– الجزائر – اليهود– الميغوراشيم– الطشابيم– المد الأيبيري–السبتائية.

Abstract

The aim of this research is studying the jews of Morocco and Algeria during the 15th and the 17th century. This is a study comparison to show the situation of the jewish people in the two conturies, after the fall of Granada in 1492. The geographical breakedown of this population was in the coastal areas during the light between the Magurashim and Toshabeen, thi one won the light.

During the iberian expansion in the grand Maghreb a business relationships deeloped between the Magurashim and the portuguese who ensure the security of the magurashim people.

The tobashim were desagree of the Portugal and the spanish expansion who continued their persecution of the jews of Algeria who request the protetion of Ottomans Empire.

The jews were in front of a political instability, years of drought and a lack of security, so they decided to reunite in a sufi movement named "Sabbatical movement" appeared in Izmir

(Turkey) and whis contributed to reduce the impact of political and social problems without forget the natural disasters.

Keywords:
Morocco – Algeria- the jews- Mugarashim – Tushabim – Iberian expansion – the sabbatical

1 هجرة يهود الأندلس بعد سقوط غرناطة:

تمتع اليهود في ظل الحكم الإسلامي بالأندلس بوضع سمح لهم بممارسة أنشطتهم الدينية والتجارية والحرفية، لكن الأمر اختلف بسقوط غرناطة، آخر معقل للمسلمين بالأندلس سنة 1492م؛ حيث "أخذت هذه الحرية تتلاشى في عهد الملكين الكاثوليكيين عندما تم فرض التعميد الإجباري وملاحقة محاكم التفتيش لهم" (رزوق، 1998م، ص25).

أمام اشتداد وطأة محاكم التفتيش والاضطهاد المستمر من طرف الملكين إيزابيلا(Isabella 1451–1504) وفرديناند (Ferdinand 1452–1516) ، وصدور قرار الطرد النهائي سنتي 1492م–1497 م، لم يكن أمام اليهود الذين رفضوا الدخول في الديانة المسيحية سوى شد الرحال إلى الشمال الإفريقي ومنه المغرب والجزائر، ومن العوامل التي جعلت اليهود يتوافدون على المغرب الكبير نجد المعاملة الحسنة أثناء وجودهم بإسبانيا المسلمة، ثم قرب المنطقة من البحر الأبيض المتوسط، إضافة إلى الموقع الاستراتيجي و الاقتصادي للمنطقة (التميمي،1981، ص، 119–156).

شكل اليهود المطرودون إلى جانب المسلمين من الأندلس مجموعة عرقية جديدة عرفت باسم (الميغوراشيم)، حيث استقرت هذه الفئة بمجموعة من المدن المغربية سواء في الشمال كتطوان، أو الوسط كأسفي وأزمور، أو في الداخل كفاس(الزعفراني، 2003م، ص.226.)، أما فيما يخص عدد اليهود الذين هاجروا نحو مختلف مناطق المعمور من الأندلس ف" تقدر بعض الكتابات عدد اليهود الذين رحلوا من الأندلس سنة 1492م، بمائتي ألف يهودي التحق جزء منهم ببعض المناطق الإسلامية الأخرى، كما هاجروا نحو شرق أوروبا، ثم استقر البعض الآخر بالدولة العثمانية(الزعفراني، ، 2003 م، ص. 298.) .

خلف وصول (الميغوراشيم) من الأندلس إلى المغرب حدثا كبيرا في نفوس(الطشابيم)، حيث حمل يهود الأندلس معهم معتقداتهم ومؤسساتهم الاجتماعية وأعرافهم وروح المبادرة التي جعلت منهم فئة اجتماعية مهيمنة على عكس الطائفة المحلية، وذلك من خلال استقطابها النبلاء والطبقة المثقفة من البلديين، ما أدى إلى نشوء خلافات بين الطائفتين في كثير من مسائل التعبد والعادات والطقوس، نتيجة اختلاف البيئة الجغرافية والثقافية للطائفتين، واشتد النزاع حول موضوع الذبائح الذي انتهى بتفوق (الميغوراشيم) وقيادة الطائفة اليهودية بالمغرب، كما كونت هذه الفئة نخبة مشاهير يهود المغرب إذ برز منهم علماء وسفراء ورجال أعمال ومستشارون وقناصلة(شروتر،2011، ص.51)، ونذكر منهم ابن عطار (Ibn Attar) والسرفاتي(Serfaty) وأزولاي (Azoulay).

وقد استطاع (الميغوراشيم) احتواء (الطشابيم) بالمغرب؛ نظرا لثقافتهم الواسعة وحنكتهم السياسية والاقتصادية، التي جاءت نتيجة احتكاكهم بالأوروبيين ثم بالمسلمين في الأندلس.

ينطبق الأمر ذاته على يهود الجزائر، إذ شكلت هذه الأخيرة قبلة للمسلمين واليهود المطرودين من إسبانيا سنة 1492 م والبرتغال سنة 1497 م، وقد

اتخذت هذه الجالية من الشمال والغرب الجزائري مقرا لها؛ وذلك لعدة اعتبارات منها قرب المنطقة من الضفة الشمالية للبحر البيض المتوسط، ثم وجود موانئ تسمح لهم بممارسة أنشطتهم التجارية(التميمي،1981، ص.123.)، أما وضعية (الميغوراشيم) فقد اختلفت من منطقة إلى أخرى، وكذلك الأمر بالنسبة للتأثير الذي مارسته على الطائفة المحلية.

ساعدت مجموعة من العوامل على هجرة اليهود صحبة المسلمين من الأندلس إلى الجزائر، حيث نجد تعرض اليهود لما تعرض له المسلمون بالأندلس، ثم براعة اليهود في النشاط التجاري والمعاملات المالية (التميمي، 1981، ص119–156.)، وقد انقسم يهود الجزائر إلى طائفتين متناقضتين، فأما الفئة الأولى فتعرف باسم (الطشابيم) ، فيما تحمل الفئة الثانية اسم (الميغوراشيم) ، لتدخل الطائفتين في سجال متبادل خاصة حول مسائل التعبد والطقوس الدينية، غير أن (الميغوراشيم) استطاعوا بفضل ثقافتهم وعلمهم وقوة تنظيمهم على المستوى الاقتصادي والسياسي من احتواء (الطشابيم)، ومن الشخصيات التي لعبت دورا في عملية الاحتواء نجد الحاخامين ريباش(Rebach)، وراش باش(Rush Bash)، رغم ذلك فتأثير (الميغوراشيم) اقتصر على المناطق الشمالية والغربية (فوزي. د ت، ص27) دون الجنوبية، وحتى إذا كان هناك تأثير فإنه اتخذ طابعا رمزيا ليس إلا، وقد برزت مجموعة من الشخصيات على الساحة الثقافية بالجزائر تزعمتها فئة (الميغوراشيم)؛ حيث نجد راش باش، وريباش، والربي إفرايم النقاوة (Ephraim Purity 1359– 1442)، ثم يهودا الأشقر(Blond Judas)، كما شكل ظهور المدارس الحاخامية في القرن 10م بمدينة تلمسان حافزا لاستقرار بعض (الميغوراشيم) بالمدينة (التميمي ،1981، ص. 119–156.)

شكل سقوط الأندلس سنة 1492 م، وصدور قرار الطرد النهائي، ثم دخول المغرب الكبير مرحلة من الانقسام السياسي والاقتصادي؛ بروز مرحلة جديدة في تاريخ الطائفة اليهودية بالمغرب الأقصى والجزائر، حيث أدت الهجرات اليهودية إلى ظهور طائفتين متناقضتين عرفت الأولى باسم (الطشابيم) وهم اليهود الأصليون، ثم (الميغوراشيم) الذين قدموا من إسبانيا والبرتغال بعد سقوط غرناطة، نتج عنه دخول الطائفتين في سجال متبادل انتهى باحتواء (الميغوراشيم) (للطشابيم)، وبالتالي قيادة الشأن الديني والاقتصادي والسياسي والاجتماعي للطائفة اليهودية بكل من المغرب والجزائر (التميمي، 1981، ص. 123).

2 يهود المغرب والمد الأيبيري

عرفت أوروبا في أواخر القرن 15 وبداية القرن 16م مجموعة من التحولات شملت جميع مناحي الحياة، جعلتها تتطلع إلى التوسع على حساب الدول الأخرى، وذلك من خلال المخاطرة وركوب الأمواج، وهو المشروع الأوروبي الذي تبلور في إطار ما يعرف بالاكتشافات الجغرافية (حبيدة،2010، ص109) التي تبقى تعبيرا عن رغبة الطبقة الحاكمة في الحصول على مزيد من المال، قصد الوصول إلى السلطة السياسية.

هذه التحولات لم تكن لتمر دون أن تترك تأثيرها على المنطقة المغاربية، ومن بينها المغرب الأقصى، الذي تعرضت سواحله سواء منها الشمالية أو الأطلسية للاحتلال البرتغالي، ذلك أن البرتغال في سعيه إلى الوصول لمراكز الذهب بأمريكا سيعمل على إحداث مجموعة من المحطات الاستعمارية بالساحل الأطلنطي، ومن بين هذه المراكز نجد منطقة دكالة، التي شكلت فضاء خصبا للاستقرار البرتغالي.

في ظل هذا الوضع المتسم بالمد الأيبيري كان المغرب يعرف مرحلة من عدم الاستقرار السياسي، تميزت أساسا بالصراع بين الوطاسيين(1462–1554) الذين كانوا يعملون كل ما في وسعهم من أجل استعادة سلطتهم على المناطق التي كانت خاضعة لنفوذهم، هذه السلطة التي تزعزعت أركانها بعد احتلال سبتة سنة

1415م، وبين السعديين(1554–1659 الذين أحكموا سيطرتهم على مفاتيح الجنوب، إضافة إلى انتشار الجفاف بالمغرب الأقصى.

أمام هذا الوضع لم يكن أمام المناطق التي كانت تربطها علاقات تجارية مع البرتغال سوى طلب حمايتها، وذلك للاستفادة من الوضع الاقتصادي المزدهر، حيث نجد طلب أعيان مدينة أسفي ممن كانوا يستفيدون من هذا الوضع، حماية الملك البرتغالي ألفونصو الخامس(Alfonso 1432–1481)، في مقابل تلك الحماية تعهد أعيان أسفي بإعفاء تجارة الملك البرتغالي من الضرائب، ثم دفع ضريبة سنوية للبرتغال، ورفع العلم البرتغالي بالمدينة(كريديه، 2001، ص292)

انتبه البرتغاليون إلى أن ضمان هذا الازدهار الذي أخذت تعرفه المدينة لن يتأتى عن طريق التعامل مع التجار المسلمين– الذين حرم البابا ليون العاشر(Leon 1513–1521)– التعامل معهم، بل من خلال جلب عنصر بشري يتميز بروح المبادرة والخبرة في تنشيط الحركة التجارية والمالية، وهذا العنصر هم اليهود الذين استغلوا كفاءاتهم ومؤهلاتهم في مجال تقديم القروض بالربا والرهن وتموين القلاع والحصون والكراء، وكراء حق الجباية إضافة إلى إلمامهم بأساليب (الوزان، 1983) التبادل التجاري والمفاوضات والبيع والشراء(الوزان، 1983، ص28)، ثم إشرافهم على المكس والجبايات وصك العملة، حيث كانت لهم دار السكة بتدنيست كما كانوا "يظهرون ذكاء كبيرا في العمليات التجارية" (كاربخال، 1989م، ص59)، غير أن التجار اليهود القادمين من البرتغال هم من تزعم هذه الحركية التجارية. ولضمان مكانة متميزة في ظل الحكم البرتغالي آثروا التعامل مع البرتغاليين أي اليهود المغاربة، نظرا لحاجة البرتغاليين إلى من يدعمهم ماديا هذا من جهة، ومن جهة ثانية تقديم البرتغاليين ضمانات بشأن سلامتهم الجسدية وأموالهم، إضافة إلى وجود شبه بين البيئة الموجودة في السواحل المغربية وشبه الجزيرة الأيبيرية، كما أن السواحل كانت واعدة أكثر من المناطق الداخلية التي يسودها التفكك وغياب الأمن(القدوري، 2000، ص103).

أمام رغبة أعيان أسفي في التعامل مع البرتغاليين، لم تتردد هذه الأخيرة في إخضاع المدينة لسلطتها الفعلية؛ وذلك بغية الاستفادة من هذا الازدهار الاقتصادي وتسخير إمكانيات المنطقة لضخ دماء جديدة في حركة الكشوفات الجغرافية، وهكذا خضعت المدينة سنة 1508م لسلطة البرتغاليين الفعلية (المنصوري، د ت، ص351)، وكان اليهود في تلك الفترة يحتكرون مجموعة من الحرف بحيث لا "يمكن لأي مسلم أن يمارس مهنة صائغ، إذ يقال إن بيع المصوغات الذهبية والفضية بثمن أعلى مما يساويه وزنها يعتبر ربا، ولكن الملوك كانوا يسمحون لليهود بالقيام بهذا العمل"(الوزان، 1983، ص283)

كان وجود اليهود بالثغور المحتلة مسألة حيوية بالنسبة للبرتغاليين، غير أن اليهود اشترطوا مقابل تقديم خدماتهم الحصول على مجموعة من الضمانات التي سبقت الإشارة إليها، وبما أن البرتغاليين كانوا في حاجة إلى العنصر اليهودي فإنهم لم يترددوا في منح الحماية لهم من طرف الملك البرتغالي إما نويل(Emaneul، 152–1469) سنة 1509م (المنصوري عثمان، د ت، ص326)، لكن بمجرد أن تمكن الأمر للبرتغاليين سيعملون على اتخاذ مجموعة من الإجراءات التي تخالف الضمانات المقدمة لهم من طرف الملك البرتغالي، وهكذا نجد تقليص عدد اليهود بمدينة أسفي سنة 1511م، دون مراعاة المدة الزمنية التي حددت في بداية الأمر في سنتين قبل الطرد (بوشرب، 1984، ص 338)، كما تعرض يهود أسفي للنهب سنة 1526م، إضافة إلى فرض ضريبة عليهم عندما خرق البرتغاليون الهدنة مع السلطان السعدي أحمد الأعرج

(المنصوري Ahmed Al-Araj،1557-1486) عثمان، د ت، ص326).

في حديثنا عن موقف اليهود من الاستعمار البرتغالي يجب أن نميز بين موقفين متباينين، حيث نجد موقف اليهود الأيبيرين الذين كانوا موالين للبرتغال، ويظهر ذلك من خلال أسمائهم، مقابل تلك الحماية قدموا خدمات مختلفة للبرتغاليين، من قبيل القيام بعملية الترجمة، حيث كان موسى داريدروا(MusaDaredru)مترجما بأسفي، ويحيى الذيب(Yahya Al Deeb) بأزمور (1المنصوري عثمان ، د ت، ص130). ثم تذليل الهوة بين البرتغاليين وبعض القبائل عن طريق الوساطة، وذلك لضمان حيادها أثناء قيام أي صراع بين البرتغاليين والسلطة الحاكمة، كما كلف اليهود بجمع الضرائب، حيث أسند هذا الأمر لأسرة الحاخام أبرهم(Ibrahim)، ويوسف الذيب الذي كان على اتصال دائم بملك البرتغال إمانويل، ولعب أبرهم دورا هاما في تحرير الأسرى البرتغاليين بعد دخول السعديين مراكش وتضييق الخناق على أسفي، كما قام يهود مراكش وتادلة بتزويد قوات البرتغاليين ببعض المعلومات حول استعدادات وتحركات الوطاسيين والسعديين(بوشرب،1984، ص256).

أما الفئة الثانية من يهود المغرب الأقصى، فاتخذت موقفا صريحا من الاستعمار البرتغالي للثغور المحتلة، ومثلث هذه الفئة العناصر اليهودية التي ارتدت عن دينها، حيث خضعت لمجموعة من الضغوطات جعلتها تقف إلى جانب المغاربة، إضافة إلى باقي يهود المغرب من الفئات الدنيا التي عارضت الاحتلال البرتغالي للسواحل المغربية(بوشرب، 1988،ص257).

جاء موقف اليهود-خاصة القادمين من شبه الجزيرة الأيبيرية*- كنتيجة طبيعية لما كان يعيشه يهود الداخل، حيث كانوا معرضين لضغوط المخزن خلال فترات الأزمة من أجل تمويل نفقاته خاصة العسكرية منها، ويظهر ذلك من خلال ما قام به أبو حسون الوطاسي(1554) عند استرجاعه فاس، حيث قام بتغريم اليهود 20 ألف دينارا، (المنصور 1989، ص. 170.) لتغطية النفقات العسكرية وأداء واجب الجنود العثمانيين، الذين رافقوه في حملته هذه، كما تكلف اليهود بتقديم القروض لعبد الملك السعدي(1576- 1578) بكل من فاس ومراكش من أجل تغطية تكاليف صراعه مع أخيه، وكذلك لتسديد رواتب الجند الذين قدموا معه من الجزائر(2المنصوري ، د ت، ص. 365.).

رغم كل ذلك استطاع اليهود نيل مكانة متميزة سواء داخل أجهزة المخزن* والبرتغاليين في مغرب القرن 16م، فإذا كانت عائلة ابن زاميروا قدمت خدمات متعددة للبرتغاليين، فإن اليهودي إبراهيم وابنه يعقوب كانا يتفاوضان مع الملك البرتغالي باسم الوطاسيين(المنصوري عثمان، د ت، ص360) كما أن إبراهيم القرطبي قام بتمثيل (أبوحسون الوطاسي) أمير بادس كسفير له بالبرتغال، لذلك فوضعية يهود المغرب في القرن 16م تحكمت فيها مجموعة من العوامل، منها الأمن الذي يبقى أهم عنصر لاستمرار أنشطتهم التجارية، فغيابه أدى إلى مغادرة يهود مراكش للمدينة سنة 1545م، بعد الصراع الذي دار رحاه بين المولى أحمد وأخيه محمد الشيخ(1540م)، كما نجد هجرة حوالي 2500 يهودي من مدينة فاس بسبب حصار السعديين لها، والجفاف الذي ضرب المغرب الأقصى آنذاك، إضافة إلى المد الأيبيري الذي ساهم بشكل واضح في تحديد هذه العلاقة، خاصة في ظل تعامل يهود أيبيريا مع البرتغاليين، حيث كان لذلك انعكاس

*كانت تسمى جزيرة الأندلس أثناء فترة الحكم الإسلامي بالأندلس، وتقع في الجزء الجنوبي الغربي من أوربا.

*مصطلح يقصد به الهيئة الحاكمة بالبلاد وكل ما يرتبط بها من شيوخ القبائل وكبار القواد، وزعماء القبائل الموالين للسطان، وتعود الاستخدامات الأولى لمصطلح المخزن بالشكل المتعارف عليه بمجتمع المغرب الأقصى، إلى العهد السعدي.

على الطائفة اليهودية بعد الجلاء البرتغالي عن السواحل المغربية، من خلال تضرر أنشطة الوسطاء سواء منهم السياسيين أو التجاريين، ويظهر ذلك من خلال نقل بعض اليهود لأنشطتهم الاقتصادية إلى مراكش مركز الثقل الاقتصادي الجديد، وهكذا نجد لجوء يعقوب بن العربي إلى السعديين وتقرب أبرهم بن زاميروا من السلطان الأعرج مع العلم أنه كان مترجما للبرتغاليين (بوشرب، 1984، ص469)، كما خلف الجلاء البرتغالي تبعات اجتماعية في إطار علاقة اليهود بالمجتمع المغربي، فإذا كان اليهود والنصارى يقومون بعمليات تجارية على حد سواء مع نظرائهم المغاربة ودون مضايقات من قبل الاحتلال الأيبيري للسواحل المغربية، فإن ما ألحقه هذا الأخير من معاناة بالمغاربة، إضافة إلى تعاون بعض اليهود مع البرتغاليين مثل أسرة الذيب وليفي؛ جعل المغاربة ينظرون إلى اليهود كطرف في الأزمة التي أصبحوا يعانون منها، وبذلك أظهروا عداء لليهود من خلال إثقال كاهلهم بالضرائب وحرمانهم من حق الملكية (بوشرب، 1984، ص471).

ارتبط القرن 16م في المغرب بما يعرف بالمد الأيبيري حيث خضعت السواحل المغربية خاصة منطقة دكالة للاحتلال البرتغالي، وقد صاحب هذا الاحتلال هجرات يهودية نزحت إلى المغرب من شبه الجزيرة الأيبيرية، غير أن هذه الجالية لم تستطع الاندماج مع المجتمع المغربي الذي يعاني من التفكك بين الوطاسيين بفاس والسعديين في الجنوب ولا حتى مع اليهود الأصليين، لذلك آثر هؤلاء اليهود خاصة منهم القادمين من البرتغال وإسبانيا (بوشرب، 1989م، ص325) التعامل مع الاحتلال على اعتبار العوامل السالفة الذكر، إضافة إلى أن الشواطئ كانت تعرف نشاطا تجاريا مكثفا، على عكس المناطق الداخلية، حيث يسود ركود تام بسبب الفتن والمجاعات وغياب الأمن (الناصري، د ت، ص، ج 4، ص.109).

لذلك يمكننا القول إن اليهود استطاعوا التكيف مع مختلف الظروف التي مرت، منها مغرب المد الأيبيري من خلال تقديم خدماتهم سواء للطرف البرتغالي عندما كانت مصالحهم تتقاطع معه، أو للمخزن المغربي عندما أخذ نجم البرتغاليين في الأفول، لأنهم رأوا في السلاطين المغاربة بأنهم هم من سيمسك بزمام الأمور.

3 يهود الجزائر من ملاحقة الإسبان إلى مولاة العثمانيين

عرف المغرب الكبير بعد سقوط غرناطة سنة 1492م انحلال السلطة المركزية بالمنطقة، الشيء الذي كان له انعكاس على المغرب الأوسط من خلال بروز مجموعة من التيارات التي تدعي أحقيتها في وراثة الحكم الموحدي(1121–1269)، وقد صادفت هذه الأوضاع ما يعرف بالمد المسيحي على السواحل المغاربية، ومن بينها سواحل الجزائر التي تعرضت لحملات الإسبان منذ سنة 1565 م، حيث خضع المرسى الكبير لإسبانيا(شارل أندري، د ت، ص323) وفي سنة 1509م سقطت وهران في يد الإسبان بتواطئ مع أحد اليهود، الذي ساعدهم في فتح باب القلعة. أمام هذا المد لم يكن أمام المرافئ الأخرى سوى التسليم بالأمر الواقع ودفع الإتاوة قبل أن تسقط بدورها في يد الإسبان(3شارل أندري، ص324)، لكن حدث سقوط وهران بيدهم قد يدفع إلى الاعتقاد بأن اليهود سواء منهم الذين تم طردهم من إسبانيا، أو اليهود المستقرين بالجزائر قد مدوا يد العون وكانوا أداة طيعة لاحتلال السواحل المتوسطية، غير أن اطلاعنا على الكتب التاريخية يبين عكس هذا الادعاء، حيث نجد معاناة اليهود من مخلفات محاكم التفتيش بإسبانيا، ويظهر ذلك من خلال ملاحقتها لهم حتى بعد إبعادهم عن السواحل، هذا الإقصاء لليهود من طرف الإسبان سيكون له انعكاس على الوضع العام للطائفة اليهودية بالجزائر من خلال

* قائد قبيلة الثعالبة، عين أميرا على مدينة الجزائر في مطلع القرن 16م.

فقدان هذه الأخيرة للدور الريادي في عملية الوساطة بين ضفتي البحر البيض المتوسط وإفريقيا، حيث نتج عن ذلك ركود في العمليات التجارية وتدهور في الأوضاع الاجتماعية، ماعدا الفئات الغنية التي استطاعت الحفاظ على مكانتها بحكم الترابط في العلاقات الاقتصادية مع يهود الخارج (التميمي، 1981، ص136).

اقتصر الوجود الإسباني بسواحل المغرب الأوسط على مجموعة من الحصون على طول الساحل، وهذا بدوره مرتبط بالتوجه العام في السياسة الإسبانية التي كانت تولي اهتماما بالغا لاكتشاف العالم الجديد وكذا ضبط مصالحها مع جيرانها خاصة إيطاليا، مما جعل تلك الحصون تعيش حالة من الحصار الدائم، ما خلف نوعا من اليأس في صفوف الجنود الإسبان، أمام مرارة الحصار الذي أصبحت تعاني منه مدينة الجزائر التي لم تكن تبعد عن مدافع الإسبان سوى بمسافة قصيرة، لم يكن أمام أهل الجزائر سوى الاستنجاد بعروج(1474–1518) وخير الدين(1478–1546) من أجل تخليص المدينة من الخطر الإسباني سنة 1514 م (شارل أندري، د ت، ص327)، اللذين لم يترددا في قبول الدعوة وشد الرحال إلى الجزائر سنة 1516 م، بعدما استطاع أن يضع حدا لمؤامرة دبرها ضده سالم التومي* بتحالف مع الإسبان وأهل الجزائر من أجل طرده، كما استنجد به أهل تلمسان سنة 1515م، غير أن مغامراته سيضع لها حد بمدينة تلمسان بعد حصارها من طرف الإسبان بتحالف مع الزيانيين(1235–1556) وهكذا ثم قتل عروج سنة 1518 م.

بعد وفاة عروج استلم مقاليد الحكم أخوه خير الدين بربروسا، هذا الأخير كان يدرك أن استمرار سيطرته على إيالة الجزائر رهين بطلب المساعدة من الدولة العثمانية، وربط مصير الإيالة بها، وذلك بسبب المؤامرات الداخلية والخطر الأيبيري على سواحل الجزائر(العروي، 2009، ص459).

شكل طلب المساعدة الذي تقدم به خير الدين إلى الباب العالي حدثا جعل الدولة العثمانية تنظر إلى المنطقة بمحمل الجد في إطار صراعها مع دول أوروبا الغربية على المشرق العربي، وكذلك للحصول على موارد اقتصادية جديدة، فلم يتردد الباب العالي في تقديم المساعدة لخير الدين من أجل طرد الإسبان كشرط أساسي للتمكن من كسب عطف سكان المغرب الأوسط ومن بينهم اليهود، حيث عملت على إنشاء فضاءات خاصة بهم وتخفيف حدة الضرائب المفروضة عليهم، إضافة إلى المعاملة الحسنة، كل هذا كان يدخل في إطار السياسة العثمانية العامة لضم مناطق جديدة لمجالها الحيوي، و ضمت الحارة التي تم إنشاؤها بمدينة الجزائر يهود الداخل، ثم المهجرين من الأندلس سنة 1492 م، وكذلك اليهود الأفارقة، وجاء استقرارهم بمدينة الجزائر بأمر من خير الدين (شارل أندري، د ت، ص339). في ما تقدر بعض الإحصاءات عدد اليهود الذين كانوا يستقرون بمدينة الجزائر خلال هذه الفترة بحوالي 5.00 يهودي (شارل أندري، د ت، ص338).

شكلت الفترة الممتدة من سنة 1509 م إلى حدود القرن 17م مرحلة انتقالية في حياة الطائفة اليهودية بالجزائر، بحكم التحولات الإقليمية والدولية انطلاقا من سقوط غرناطة سنة 1492 م إلى المد المسيحي، ثم الاكتشافات الجغرافية، إضافة إلى التطاحن بين مكونات المجتمع الجزائري خلال هذه المرحلة، فإذا كان اليهود قد عانوا من ملاحقة محاكم التفتيش بإسبانيا فإنها لم تتردد في ملاحقتهم حتى على سواحل الجزائر، مما نتج عنه أضرار اقتصادية واجتماعية لحقت بالطائفة، لكن بمجيء العثمانيين ستبدأ مرحلة جديدة في حياة اليهود من خلال تخصيص أماكن لهم وتعرف بالحارة، بالمقابل فإن هذه المرحلة

الجديدة أدخلت اليهود في وضع من الدونية من خلال وضع الذمي الذي يبقى في نفس الوقت عنصرا من عناصر توفير الحماية للطائفة بأكملها، وبذلك سيدخل اليهود غمار مجالات جديدة، فاليهودي لم يعد يقتصر على العمل التجاري، بل امتد إلى التأثير في القرار السياسي للدايات* والبايات*، وهذا الأمر يظهر جليا في القرن 18 م وبداية القرن 19 م، حيث تعاظم دور اليهود خلال هذه الفترة سواء في الجانب الاقتصادي والسياسي للجزائر (التميمي، 1981، ص136).

صادفت الهجرات اليهودية صحبة المسلمين من الأندلس ما يعرف بالمد الأيبيري للسواحل المغاربية(المغرب الأقصى- الجزائر)، حيث اختلف موقف الطائفة اليهودية من هذا المد بين من أثار التعامل مع الأيبيريين بحكم تقاطع مصالحه الاقتصادية مع البرتغاليين خاصة توفيرها لعنصر الأمن بحكم الظروف العامة التي كانت تعرفها البلاد، وبين من اتخذ موقف الرفض بحكم الممارسات التي عمل البرتغاليون على تكريسها، وكذلك لوطنية اليود الذين لم يستسيغوا الخضوع للاستعمار (بوشرب، 1989، ص325)

إذا كان يهود المغرب انقسموا بين موال للاحتلال الأيبيري ومعارض له، فالأمر يختلف في ما يخص الجزائر حيث عانى اليهود من ملاحقة الإسبان لهم حتى على السواحل الجزائرية، مما جعل الطائفة اليهودية تعيش وضعا غاية في الصعوبة مما كان يعيشه يهود المغرب، وهو ما جعل يهود الجزائر ينتظرون من يخلصهم من هذا الوضع، فلم تكن سوى الدولة العثمانية، غير أن الوضع العام الذي أصبح يعيشه العالم الإسلامي بصفة عامة، والمغرب الأقصى بصفة خاصة، أدى إلى ظهور تيار صوفي عرف باسم الحركة السبتائية(4 الغرايب، 2007، ص471-480)

4 يهود المغرب الأقصى والحركة السبتائية

عندما نتحدث عن الحركة السبتائية فالأمر يتعلق بحركة صوفية ظهرت بالمغرب كامتداد طبيعي للحركة السبتائية التركية، فكيف انتقلت إلى المغرب؟ وما هو موقف الطائفة المحلية من هذه الحركة؟

ظهرت الحركة السبتائية في بادئ الأمر بمدينة أزمير التركية، وذلك في ظل وضعية متأزمة تميزت بعجز العثمانيين عن دخول فيينا للمرة الثانية 1532 واغتيال السلطان إبراهيم(1615-1648م)، إضافة إلى مهاجمة أسطول البندقية لسواحل الدولة العثمانية، بالمقابل كان يهود أوروبا يعيشون تحت رحمة محاكم التفتيش(5حرب، 1999، ص107) يبقى هذا هو السياق العام لظهور الحركة السبتائية بتركيا، أما المغرب فقد جاء قيام هذه الحركة فيه نتيجة الأوضاع العامة التي كانت تعرفها البلاد، ويبقى أبرزها انتقال الحكم من السعديين(1554-1659م) إلى العلويين، إضافة إلى الضغط الذي مارسه المولى الرشيد(حكم ما بين 1666-1672م) على اليهود من خلال استيلاء هذا الأخير على مال بن مشعل*(الأفراني، 1998، ص425) كما نجد العوامل الطبيعية التي ساهمت بدورها في بروز الحركة السبتائية.

لذلك فعندما نتحدث عن حركة ذات توجه صوفي، فالأمر يتعلق بتداخل مجموعة من العوامل التي ساعدت على قيامها، يبقى أبرزها الواقع الذي أصبحت تعيشه الطائفة اليهودية في كل أرجاء العالم ومنه المغرب، لتبقى الحركة السبتائية تعبير عن واقع معين أصبح فيه الإنسان اليهودي في كل أرجاء العالم ومنه المغرب يبحث عن الخلاص الروحي للتخفيف عن الذات وتناسي الواقع المزري(الغرايب، 2007، ص471-480)، ويظهر ذلك من خلال المبادئ التي أصبحت تنادي بها الحركة، والمتمثلة في ظهور المنقذ سبتاي الذي سيخلص اليهود من هذا العالم "النجس"،

البايات: كلمة تركية تعني الأمير.*
الدايات: اللقب الذي أطلق على حكام الجزائر خلال فترة الحكم العثماني.*

*هارون بن مشعل: يهودي مغربي حكم منطقة تازة، قضى عليه المولى الرشيد واستولى على أمواله في الفترة ما بين 1659-1660.

أما مناطق انتشار الحركة فشملت الساحل المغربي من طنجة إلى أكادير، لكنها لم تعرف في بادئ الأمر انتشارا واسعا في الفترة الممتدة من سنة 1666م-1669م، غير أنها ستعرف انتشارا في الفترات اللاحقة في المدن الرئيسة كسلا ومراكش وفاس(شحلان، 2009، ص. 128.)،غير أن الحركة لقيت معارضة بعض الأحبار، وخاصة فاس وتطوان، ومن أشهر المعارضين للحركة نجد العربي يعقوب شيشورطشي. (شحلان ، 2009، ص128)

حددت الحركة السبتائية سنوات بعينها لظهور سبتاي، وهي 1666م_1672م_1675م، غير أن حلم الخلاص الذي انتظره اليهود لم يتحقق خلال هذه السنوات، لذلك فالحركة السبتائية لم تكن سوى تعبير في وضعية اليهود في ظل الحكم الإسلامي الذي ساهم بجزء هام في توسعة رقعة الحركة واعتناق العامة والخاصة لهذا المذهب، حيث أصبحوا يرون فيه المنقذ من الوضع العام الذي يعيشه يهود المغرب، وهذا الوضع شبيه بما عايشه المغاربة في ظل المد الأيبيري وما نتج عنه من بروز للزوايا والصلحاء.

هكذا تكون الطائفة اليهودية بالمغرب والجزائر قد عرفت في الفترة الممتدة من القرن 16م إلى القرن 17م مجموعة من التحولات البنيوية سواء في علاقتها بذاتها أو بالمجتمعات التي استقرت بها، فإذا كان اليهود الذين طردوا من الأندلس والبرتغال قد دخلوا في صراع مع الطائفة المحلية واحتوائها بحكم ما توفر لها من علم وتأثير اقتصادي، فإن جانبا منها اتخذ موقفا منحازا للاحتلال الأيبيري، خاصة بالمغرب حيث انعكس ذلك على وضعية الطائفة اليهودية بالمغرب، كما أن الظروف العامة التي كان يعرفها العالم العربي-الإسلامي بصفة عامة والمغرب الأقصى بصفة خاصة جعلت اليهود يدخلون مرحلة من الانكماش على الذات والإيمان بالغيبيات، وهو ما تبلور في الحركة السبتائية، لكن ذلك لم يكن سوى مرحلة عابرة في تاريخ الطائفة بالبلدين (المغرب_الجزائر) لتعود إلى حيويتها وممارسة أدوارها انطلاقا من القرن 18م.

خاتمة

شكلت الفترة الممتدة من القرن 15م إلى القرن 17 م، مرحلة مهمة في مسار تطور اليهود بالمغرب الأقصى والأوسط، فرياح التغيير التي عرفتها المنطقة، والمرتبطة بسقوط غرناطة وحالة الانقسام السياسي بعد انهيار الدولة الموحدية، ساهمت في تمكين اليهود اجتماعيا، من خلال الاندماج داخل المجتمع مستغلين ما توفر لهم من ثقافة واسعة، واقتصاديا من خلال الأدوار الطلائعية في بنية التجارة المغربية والجزائرية موظفين بذلك ما راكموه من خبرات في الميدان الاقتصادي، وسياسيا باعتمادهم سفراء ومفاوضين لسلطان المغرب الأقصى بحكم إتقانهم للغات واحتكاكهم المستمر بالأجانب، كما كانت لليهود القدرة على التعايش مع مختلف الوضعيات السياسية، وتوظيفها وفق ما يخدم مصالح السلطة ومصالحهم الشخصية، ليبقى اليهود جزءا من الشخصية التاريخية للمغرب الاقصى والأوسط، اختلفت مساهمتهم في التطور التاريخي لهذه المجتمعات باختلاف الأحوال.

الهوامش

(1)- رزوق محمد، الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17 م، أفريقيا الشرق الدار البيضاء، 1998 م، ص25.

(2)- التميمي عبد الملك، اليهودية والصهيونية في المغرب العربي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع 4، 1981، ص119_156.

(3)- الزعفراني حاييم، يهود الأندلس والمغرب، ترجمة أحمد شحلان، مطبعة النجاح الجديدة الرباط،ج1، 2003 م، ص226.

(4) نفسه، ص298.

(5) شروتر دانييل، يهودي السلطان المغرب وعالم اليهود السفرد، تعريب خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، 2011.

(6)- التميمي عبد الملك، م، س، ص119-156.

(7)- التميمي عبد الملك، م، س، ص119-156.

(6)- سعد الله فوزي، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، شركة دار الأمة للطباعة، والنشر والتوزيع، ص27.

(9) التميمي، م ،س، ص119-156.

(10) التميمي، نفسه، ص123.
(11)- حبيدة محمد، تاريخ أوروبا من الفيودالية إلى الأنوار، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسة بحوث ودراسات، رقم :42، 2010، ص109.
(12)- كريديه إبراهيم ، علاقات يهود أسفي بالاستعمار البرتغالي للمدينة في النصف الأول من القرن 16، مطبوعات أكاديمية الملكة المغربية، أسفي 2001، ص292.
(13)- الوزان الحسن بن محمد الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ج 1، 1983،ص211.
(14)نفسه، ص28.
(15) كاربخال مارمول، إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر وأحمد التوفيق وأحمد بن جلول، ج2، 1989م، ص59.
(16) القدوري عبد المجيد، المغرب وأوربا ما بين القرنيين 16 و16 (مسألة التجاوز)، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، 2000.
(17) المنصوري عثمان، التجارة بالمغرب في القرن 16 مساهمة في تاريخ المغرب الاقتصادي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة وسائل وأطروحات رقم 30، ص351.
(18)لوزان، م، س، ص283.
(19) المنصوري عثمان، م، س، ص326.
(20) بوشرب أحمد ، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور (قبل 8 غشت 1481 أكتوبر 1541)، دار الثقافة،1984 م، ص338.
(21)المنصوري عثمان، م، س، ص326.
(22)نفسه، ص130.
(23)بوشرب أحمد، م، س، ص256.
(24) بوشرب أحمد، م، س، ص257.
(25) المنصور عثمان، تأثير الحروب والكوارث الطبيعية على النشاط التجاري بمغرب القرن 16، ضمن أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، ج 2، جامعة الحسن الثاني عين الشق الدار البيضاء 1989، ص170.
(26) المنصوري عثمان، التجارة بالمغرب في القرن 16 مساهمة في تاريخ المغرب الاقتصادي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم :30، ص365.
(27) نفسه، ص360.
(28) بوشرب أحمد، دكالة والاستعمار، م، س، ص469
(29)نفسه، ص471.
(30) بوشرب أحمد، التجربة الاستعمارية بدكالة ودور بعض الفئات الاجتماعية في إرساء قواعدها، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس، 1989م، ع 5، ص325.
(31)الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الثقافة، د ت، ص109.
(32)-جوليان شارل أندري، تاريخ إفريقيا الشمالية تونس-الجزائر-المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830 م، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، ج2، 1905، ص323.
(33) التميمي، م س، ص119-156.
(34)نفسه ، ص324.
(35)جوليان شارل أندري، م، س، ص327.
(36)العروي عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، 2009، ص.
(37) جوليان شارل أندري، ص339.
(38)نفسه، ص338.
(39) التميمي، م س، ص136.
(40) بوشرب أحمد، التجربة الاستعمارية بدكالة ودور بعض الفئات الاجتماعية في إرساء قواعدها، م س، ص325.
(41)الغرايب محمد، التصوف اليهودي بين العقيدة والتاريخ، المناهل، عدد، 80-81، 2007، ص471-480.
(42)حرب محمد، العثمانيون في التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق، 1999، ص107.
(43) الأفراني محمد الصغير، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، 1998م، ص425.
(44)الغرايب محمد، التصوف اليهودي بين العقيدة والتاريخ، المناهل، عدد، 80-81، 2007، ص471-480.
(45)شحلان أحمد، اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة، قراءة في الموروث والأحداث، دار أبي رقراق، الرباط 2009.
(46)نفسه، ص128.